التخييل التاريخي في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج.

أحسن الصيد

أستاذ محاضر في الأدب العربي الحديث والمعاصر

مؤسسة الانتساب: المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر

البريد الإلكتروني: hassanmwefek@gmail.com

حسناء مسدور

طالبة دكتوراه في الأدب الحديث والمعاصر.

مؤسسة الانتساب: كلية اللغة العربية واللغات الشرقية جامعة الجزائر٢.

البريد الإلكتروني: hassna.insp@gmail.com

ملخص:

تشتغل الرواية على التاريخ، وتعتبره مصدر إلهام وإبداع، لما يفتحه أمامها من آفاق تخييلية واسعة، ولما يثيره من فضول وإغراء بالبحث والتنقيب عن حقائق مغيبة، أو حوادث غامضة، وبما يكتنف شخصياته من أسرار متكتمة، وقد اتجهت الرواية العربية نحو هذا المعين السرديّ الذي لا ينضب، فحاولت كتابته من جديد، وبعث شخصياته من مراقدها، وتقديمها للذائقة الأدبية في قوالب جديدة، تجمع بين الحقيقة التاريخية والتخييل السردي.

خاضت الرواية الجزائرية هذا الغمار السردي، في محاولة لإعادة كتابته من جديد، وسرعان ما ظهرت منجزات هذا النوع السردي على ساحة الكتابة الروائية، ويعتبر الروائي الجزائري وسيني الأعرج رائد هذا النوع السردي الهجين بامتياز، فقد دخل لجة السرد التاريخي، وحاول مساءلة التاريخ ونقده وتفسير غوامضه، من خلال أعمال سردية مميزة منها: رواية الأمير" التي تتبع سيرة الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، هذه الشخصية التاريخية التي أثارت جدلًا سياسيا وتاريخيا كبيرًا، بين من يرفعها مقام الوطنية والفروسية والتديّن الحقيقي، وبين أقلية تحاول التقليل من شأنها، والتهوين من مكانتها، وتذهب مذهب التخوين، والتنازل عن القضية، لذلك حاول وسيني البحث عن الحقيقة، وإنصاف هذه الشخصية، والبحث في انكسارات الأمير الجزائري، والعودة إلى بداية السقوط، والظروف التي أحاطت بالأمير قبل الاستسلام، وتقديمه لفرسه وسلاحه هدية للأمبراطور الفرنسي.

تحاول هذه الورقة البحثية دراسة هذا المنجز السردي التاريخي، والكشف عن عثرات السرد فيه، وتمييز ما هو تاريخي، وما هو فني تخييلي.

الكلمات المفتاحية: الأمير، موسينيور، أبواب الحديد، الرواية التاريخية، واسيني الأعرج.

Abstract:

The novel works with history, viewing it as a source of inspiration and creativity, as it opens wide imaginative horizons and stimulates curiosity and the allure of researching hidden truths or mysterious events. It brings to light characters surrounded by secrets. Arab literature has turned toward this inexhaustible narrative source, attempting to rewrite it, revive its characters from their graves, and present them in new forms that blend historical facts with narrative imagination.

Algerian literature ventured into this narrative field, attempting to rewrite history, and soon the results of this historical narrative genre appeared in the novel writing landscape. The Algerian novelist Wasini al-A'raj is considered a pioneer of this hybrid genre. He ventured into historical narration, questioning, critiquing, and interpreting its mysteries through distinctive works, including his novel *The Prince*, which traces the life of Emir Abdelkader, the founder of modern Algeria. This historical figure has sparked significant political and historical debate, with some elevating him to the status of a national hero, a symbol of chivalry and true piety, while a minority seeks to undermine his stature and accuse him of betrayal and abandoning the cause. Wasini

tried to uncover the truth, justify this figure, and examine his defeats, tracing the events leading up to his surrender and his gift of his horse and weapon to the French emperor. This research paper aims to study this historical narrative achievement, exploring its narrative challenges and distinguishing between the historical and the fictional artistic elements.

Keywords: The Prince, Monsieur, The Iron Gates, Historical Novel, Wasini al-A'raj.

مقدمة:.

لقد ساد مصطلح الرواية التاريخية ردحا طولا من الزمن، واستطاع السرد عبر التاريخ الأدبي أن يرجع إلى التاريخ، ويستدعي شخصياته وأحداثه، ويعيد بعثها من جديد، ووجد في التاريخ مادة سردية قابلة للتطويع، والتشكيل فحرص منذ البداية على استعادة هذا الكنز ،وتسليط ملكة الحكي عليه ،فالعبر والغرابة والعجيب الخارق سمة هذا التاريخ، وهو حافل بالأسرار والغموض ،يحتاج إلى قراءات جديدة و قراءات محايدة ،وإعادة تجديد، وقد بدت العلاقة بين الطرفين طبيعية ،استطاع السرد من تشكيل هوية جديدة ،تلتقي فيها الحقيقة التاريخية بالتخييل الفني، والعلم بالفن رغم ما يوجد بين العالمين من فروق ،وما يميزهما من خصوصية : " **يرى بعض الدارسين أنّ التاريخ تدوين لسير الحضارة الإنسانية ،ومن ثم لا ينبغي أن يرتبط بالفن أو يتغيّاه.والواقع أن التاريخ لا يجوز لنفسه أن يجعل الفن من أهدافه، لكنّها أنوية أصل قديم عندما كان مع الحكاية جنسا واحدًا في رحم الأسطورة – أي تعبيرًا عن البشري والكوني كما يقول العروي– خلّفت له صيّغًا فنية التزمها بعض المؤرخين قصدًا ،ونبّه بعضهم الآخر لضرورة نفيها ليستقل التاريخ بعلميته؛ وسواء تعلّق الأمر بإثباتها أو نفيها فذلك دليل على وجودها مُخزنة في ما أسميناه "الذاكرة الأجناسية " للتاريخ.."**[١]..

إنّ إعادة كتابة التاريخ في قالب سردي، هو عند البعض ضرب من العبث والفوضى، إذ لا يمكن الجمع بين سرد قائم على التخييل والتسلية وتزجية الفراغ، وعلم قائم على الحقائق

والأحداث الثابتة التي لا تتغير، والتي صارت من الماضي ،وأي عمل يشتغل على التاريخ أو يحاول استعادته وتمثله فنيّا ،يعدّ تجاوزًا وانحرافا : " **تنبع المفارقة في الرواية التاريخية من أنّها تستعرض بأدوات معاصرة ورؤية معاصرة عالمًا قديمًا بمفاهيمه الخاصة وقيمه الجمالية** .."[٢].

تختلف رؤية الروائي للتاريخ عن رؤية المؤرخ له، والحقيقة أنّه لا يوجد تاريخ محض ،كما لا يوجد سرد محض، لذلك يتداخل التاريخ مع السرد، فالأخبار جزء من التاريخ، والخبر يعتمد على الشفوية، والمرويات الشفوية ،والسرود الشعبية مصدر من مصادر الخبر، فالملاحم اليونانية أصبحت جزءً من التاريخ اليوناني، والسير الشعبية جزء من التراث التاريخي للشعوب.ولا يمكن إبعاد السرد وفصله عن التاريخ الذي كثيرًا ما اتخذ السرد طريقة للكتابة والتدوين، واستمع له وهو يهم تقييد الوقائع والشخصيات والأماكن ،وكثيرًا ما كان الحوار بين الرواية والتاريخ متاحًا عبر مراحل تاريخها ،بل لم نعد نكاد نعثر على نص روائي عربي حديث لا يتكأ على التاريخ ولا يستلهم منه مادته السردية، فهناك نزوع واضح نحو الماضي والتراث ،حتى انغمس السرد في التاريخ واندغم فيه، وصار جزءَ من هويته السردية ،وقد أثار هذا التماهي اهتمام النّقاد والدّارسين الذين بحثوا في هذا الإشكال الفني،وهذا التهجين السردي، فكيف يتفاعل داخل نص واحد خطابان مختلفان ومتعارضان ،خطاب واقعي نفعي ومرجعي هو الخطاب التاريخي، وخطاب جمالي وفني هو الخطاب السردي الذي يتخذ الرواية شكلا له.: "**فالتاريخ شأنه شأن الرواية خطاب سردي،ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه،فإنّه يظلّ خطابًا منجزًا في مقام محدّد ،تتحكم فيه اعتبارات شتّى ،توجهه ،وتضيء مسالك قراءته ،وكذا الشأن بالنسبة إلى الرواية فهي وإن بدت لنا خطابًا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعًا تامًا، ومن هنا تتخذ الصلة بين الرواية والتاريخ صورًا متعدّدة ،تحتاج الكشف عن مختلف جوانبها إلى تقصٍّ لا يخلو والحقّ يُقال من متعة وإغراء...**".[٣]

إنّ هذه العلاقة غير المنطقية في الغالب بين التاريخ والسرد هي التي تعيد طرح إشكالية مصطلح الرواية التاريخية،وتدعو إلى إعادة النظر فيه، لأنّ الخيال المبدع لا يؤمن بالمقدس ولا يعبأ بالحقيقة التاريخية ، فعمله هو الاختراق والعدول عن الواقع، ليتيح المجال للتخييل السردي ،الذي يحترف الغواية ويبحث في التاريخ عن نفسه فقط، وقد يبدع تاريخًا موازيا يخالف الحقائق، ويناقضها، ولا يمكنه مطابقة التاريخ والتقيد به مهما حاول، فهناك فرق واضح بين ما قدمه

التاريخ من حقائق عن الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان يحج عامًا ويغزو عاما آخر ،وبين ما قدمه السرد العربي عنه، ممثلا في ألف ليلة وليلة، وهناك فرق بين ما كتبه جورجي زيدان في قصصه التاريخي وبين ما دونته كتب التاريخ والأخبار، والأمر ينسحب على قصص توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وجمال الغيطاني وبن سالم حميش وواسيني الأعرج وعزالدّين جلاوجي، وعبد الوهاب عيساوي وهاجر قويدري وغيرهم في الشرق والغرب. وفي النهاية فإنّ الرواية لا تعيد كتابة التاريخ بقدر ما تقوم بتأويله :" **إنّ الروائي الحق هو مؤرخ بامتياز لكنه لا يكتب التاريخ بالطريقة التي يفعلها المؤرخ ،وإنّما يختار مفصلا زمنيا من هذا التاريخ يثير اهتمامه ،فيكسبه حياة من لحم ودم ،ولا يبقى إلّا أن يلتزم بوقائع التاريخ التي يذكرها في روايته لا أن ينتقي منها ما يعجبه أو يختزل ما لا يعجبه أو يسقطه من اعتباره ..**"[٤]

وفي ظلّ هذا التعارض بين التاريخ كعلم موضوعي والرواية كفن تخييلي، يحاول الدّارسون رأب الصدع بينهما وتقريب الهوة بينهما، والتخفيف من حدّة التناقض بينهما ، بتغيير مصطلح الرواية التاريخية الذي لم يعد ينطلي على منجزات السرد العربي اليوم،ويقترحون استبدال المصطلح الإشكالي بمصطلحات أخرى بديلة ،تصنّف هذا النوع من السرد من جديد ،وتضعه في السياق الذي يصدق عليه.

أ/ مسرد كتاب الأمير:

يجمع وسيني سيرة الأمير عبد القادر الجزائري – ١٨٠٧- ١٨٨٣- في عمل روائي ضخم عدد صفحاته ٥١٤ مقسم إلى ثلاثة أبواب هي:

الباب الأوّل: باب المحن: ويضم خمسة أقسام أطلق عليها الروائي وقفات وهي:

الوقفة الأولى: مرايا الأوهام الضائعة.

الوقفة الثانية: منزلة الابتلاء الكبير.

الوقفة الثالثة: مدارات اليقين.

الوقفة الرّابعة: مسالك الخيبة.

الوقفة الخامسة: منزلة التدوين.

الأميرالية : وهي محطّة تتكرّر في بداية الباب الأوّل والثاني وفي بداية الباب الثالث.

الباب الثاني: باب أقواس الحكمة وتضمّن الوقفات الآتية:

الوقفة السادسة: مواجع الشقيقين.

الوقفة السابعة: مراتب المهاوي الكبرى.

الوقفة الثامنة: ضيق المعابر.

الوقفة التاسعة: انطفاء الرؤيا وضيق السبل.

الباب الثالث: باب المسالك والمهالك:

الوقفة العاشرة: سلطان المجاهدة.

الوقفة الحادية عشر: فتنة الأحوال الزّائلة.

الوقفة الثانية عشر: قاب قوسين أو أدنى.

يحاول واسيني تقديم رؤيته الخاصة لشخصية الأمير، والتركيز على وثائق تاريخية يراها هامة وحاسمة في رسم ملامح الشخصية، والكشف عن الجوانب الخفية والغامضة من حياة الأمير عبد القادر، والغريب أنّ واسيني بدأ من نهاية معارك الأمير وسيرته، ومن لحظة الاستسلام والهزيمة، والرواية بعد ذلك تضم سيرتين اثنتين، سيرة الأمير عبد القادر وسنوات سجنه في قصر " **أمبواز" بين سنة:" ١٨٤٨ و١٨٥٣"**، وعلاقته الأمير بصديقة الفرنسي الجديد، ومحاميه الشرس **"مونسينيور ديبوش" Monseigneur Dupuch**، الّذي كان أسقف المسيحية في الجزائر لمدة تربو على العشرين سنة، وقد بعث للرئيس الفرنسي **"شارل لويس نابليون بونابرت " ١٨٠٨– ١٨٧٣"** رسالة طويلة يذكره فيها بوعوده للأمير عبد القادر باختيار منفاه إلى تركيا أو سوريا، وقد طال مقام الأمير في سجنه الفرنسي، وضاق به المكان.

يحرص واسيني على إثبات نظرته الخاصة للتسامح الديني، والحوار الحضاري، وقد وجد في شخصية الأمير عبد القادر هذا النموذج الثقافي الذي ينشده، فقد بدا مستكينا ومهادنًا، منفتحا على الآخر، يبادله المحبة والصفاء، ولا يتحرج في الاقتراب منه، بل ومشاركته لكثير من قناعاته الدينية خاصة، ويمدّ يده إلى التراث المسيحي يحاول اكتشافه، والدخول إليه دون خوف أو تردّد، لا شيء في قلبه من الحسد، ولا شيء في روحه من الثأر والانتقام، فقد دار بين الرجلين المتدينين حوار شفّاف:

" لا أدري من أين جاءني كلّ هذا، ولكنّي أحبّك أكثر ممّا يمكنك أن تتصور، لك في قلبي مكان واسع ، وفي ديني متسع لا يفنى ولا يموت.
–روحك أنت غالية عليّ، ومستعدّ أن أمنح دمي لإنقاذها، امنحني من وقتك قليلًا لأتعرّف على دينك، وإذا اقتنعتُ سرتُ نحوه.."[٥].

استغرب الأسقف عبارة الأمير، ويسترجعها في خلوته، ولا يجد لها تفسيرًا، لقد بدأت هوية الأمير تتبدّل، وتنازلاته تكبر، فهل كانت هذه قناعته، أم أنّه يحاول المجاملة، ويستميل الأسقف نحوه، ليقنع رئيسه، ويفلت الأمير من أسره هذا، ويبحث عن سجن جديد، يمارس فيه ثقافته ولغته، ويحقّق فيه هويته، ويستعدّ لتقديم تنازلات جديدة، وتضحيات جسيمة، فليس تمت ما يخسره، أو يراهن عليه، ولكن أن يغيّر دينه، وينفصل عن ذاته وعقيدته، فهذا موقف صعب التفسير فعلًا.

يجمع الأمير في مواقفه بين السياسة والتصوّف، فلا فرق عنده بينهما، فكلّما ضاقت دائرة السياسة والسلطة، اتسعت أمامه دوائر التصوّف، ومدارات العرفان أحواله ومقاماته، وكراماته ورؤاه، فالسياسة قرار خاسر، ونهايتها مهزومة، ومسالكها وعرة وصلبة ومكلفة، أمّا قرارات الصوف فلا تزال متاحة، يمكنها كشف الحقائق، واستشراف الغد، وقد حرص الروائي على اختيار مصطلحاته، بما يتناسب مع ثقافة البطل الروائي ومنزلته، فلا زالت كرامات الشيخ فاعلة، وكشفه قويا، فعندما تضيق مسارات السياسة ، تتسع مدارات الكشف الصوفي، وقد رصد السارد مجموعة ألفاظ للتصوّف منها: " **منزلة**"، " **مدارات اليقين**"، "**أقواس الحكمة**" ، " **مراتب** "، **الرؤيا**"، " **المجاهدة**"، " **قاب قوسين أو أدنى**"...

فكأنّ الرواية صراع بين الحقيقة الصوفية، والواقع السياسي، يتغالبان، تنتهي السياسة ليبدأ التصوّف الدّينيّ، يضيء بإشراقاته وكشفه، ويتحوّل القائد السياسي والعسكري إلى إنسان سلبي يبالغ في تقديم التنازلات، يظهر قابلية غريبة وضعفا كبيرًا، يجعلانه مستعدًا لتقديم المزيد من التنازلات، للآخر الذي كان بالأمس عدوًّا يتقيه، ويحاربه، إلى صديق قريب، يعترف له بحبّه، واستعداده لترك دينه وعقيدته، واعتناق دينه المسيحي، والواضح أنّ المؤلف كان يتدخّل تدخلا سافرًا لتغيير قناعات الأمير، ويريد أن يجعل منه رجل طريقة دينية مختلف، فالمونسيور في رسالته لرئيسه، يجمع الحجج :"

لقد أظهر الروائي شخصية الأمير ووسمها بالهشاشة والوهن، فكأنّ الأمير كان يراجع نفسه، وقد بدا نادمًا خائبًا، مهزومًا ضيّع كلّ شيئ، وقد صار وحيدًا يتجرّع الخيبات والهزائم، وقد قبل الأسر واستكان للعدو، يترقب عفوه، ويرجو صفحه بأيّ ثمن فما الذي دفع بواسيني أن يحوّل بطلا قوميّا، ورمزًا وطنيا ودينيا إلى رجل خانع مستسلم مهزوم؟

ب/ الأمير بين الحقيقة التاريخية والعمل الفني:

لاشكّ أنّ وسيني حينما كتب رواية الأمير، لم يكن همّه إعادة كتابتها من منظور تاريخي محض، ولم يكن يهدف من عمله تصحيح أخطاء تاريخية، أو تصويب عثرات الأمير، ومساءلته تاريخيا عن طريق السرد، فالواضح أنّ الرجل انشغل بمشروعه الإيديولوجي المبطّن، الذي يفسر به ظواهر التاريخ، ويتخذه منهجا يمارس من خلاله مقارباته وينسج من خيوطه الناعمة حبكته السردية، وحكاياته التاريخية، فالكتابة عن حياة الأمير عبد القادر الجزائري، مشروع وطني كبير، يحتاج إلى تحضير وتجهّز، وإلى حذر ويقظة، وقد تزامنت كتابة الرواية مع سياقات ثقافية وسياسية جديدة، وقد تعالت بعض الأصوات في الجزائر، تدعو إلى البحث والتقصّي في حياة الأمير، وقد تجاوزت حدود الموضوعية والعلمية والأدب، فراحت تشكّك في نوايا الأمير، وترميه بالخيانة والتخلّي، فقد باع القضية وسلّم أمر المقاومة للاحتلال، فهل يجيب واسيني عن هذه الأسئلة أم يقرّ بها؟

يتجاهل الروائي شخصية الأمير خلال الفصول الأولى من روايته، ويركّز عدسة السرد على هذه الشخصية الفرنسية المتدينة، والتي تحظى بثقة الدولة الفرنسية، وبثقة الأمير نفسه، وقد كان لها الدور الأبرز في إمضاء معاهدة الاستسلام، فـ"المونسيور " يمثّل دور الوسيط بين فرنسا والأمير، ودور هيئة الدفاع عن الأمير، وقد أعجب بتسامحه الدّيني الكبير، والغريب أنّ الروائي كان كمن عكس أدوار الشخصيتين، فالأمير مستسلم للنفي، لا زال يتجرع مرارة الخيانة والهزيمة، لكنّه لا يفكّر في الانتقام، ولا العودة إلى الوطن، بينما " الأسقف الفرنسي" يظهر حبّه للجزائر، وتعلقه بها ، بل ويوصي خادمه بدفنه على ترابها ! فهل تعمّد واسيني إخفاء الأمير، وإخفات صوته، وتأجيل حضوره إلى حين؟ وما الغاية من تعطيل الظهور؟ وهل الأمر مجرد لعبة من ألاعيب السرد، وتجريب جديد؟ أم أنّ التأجيل مقصود والغياب مفتعل؟

نحن نعرف الأمير من خلال ما يقدمه لنا "المونسيور دي بوش" من معلومات، وما يذكره من مواقف عن الأمير، الذي لم يكن محرك الأحداث، بل كان مجرد بطل من ورق، فهو

موضوع الكتاب الذي كان " المونسنيور" بصدد إعداده مع خادمه ليرسل بعمله هذا إلى رئيس فرنسا يستعطفه ويتوسط عنده للأمير، ويراه ضحية فهل هذا معقول؟ فالروائي في نظرنا يسلّم أمر الأمير للفرنسي، ويسلّم بالرواية الفرنسية عن الأمير، وهي الرواية المتاحة عنده، والرجل كان ينقل فصولا من كتاب، يستند على حقائقه، ويتخذها مرجعا له، فرواية الأمير لم تكتب بعد، لم تكتمل، بل لم يكملها، وهو لا زال بصدد كتابتها:" **في المرّة الأخيرة قبل أن أغرق في نوم أعادني من جديد نحو أمّي، رأيته منحني الظهر بريشته الأنيقة ، وكلماته التي كانت تأتي من أعماقه، بعد أن أصبحت سيولة المداد أكثر لزوجة وسيولة، لم يكن يكتب كان منهمكاً في شيء أكثر ضراوة ونعومة من الماء، كان يطرّز كما كان يقول هو دائما عن الأمير، كلّما دخل عليه وهو يكتب أو يملي سيرته..**"[٦].

الحقيقة إنّ "وسيني" لم يكتب سيرة الأمير، ولم يكن مشغولًا بها، بقدر ما كان مشغولًا بهذا الكتاب عن الأمير، والذي قام " مونسينيور ديبوش" بتحريره وتنميقه وتدبيجه، وكان رسالة طويلة يعدّها للرئيس، يشبه ملف الدّفاع التي يحضرها المحامون عن موكليهم، وليس من الصدفة أن يتطابق اسم الرواية " **كتاب الأمير**"، مع كتاب مكيافيلي الإيطالي " **كتاب الأمير**" ، ومادامت فلسفة مكيافيلي تقوم على قاعدة الغاية تبرّر الوسيلة، فقد حرّر الروائي بطله من كلّ قيد، ومن كلّ معنى وطني وقومي، فقد بدا الأمير مستكينا، يقبل كلّ الشروط، ويرضخ لكلّ ابتزاز، ومستعدّ لتقديم كلّ التنازلات للعدوّ، من أجل الانتقال إلى الضفة الأخرى، أين سيمارس حياته الطبيعية، قائدًا وعالمًا وشيخ طريقة.

لم تكن رواية الأمير أو كتاب "مونسينيور" رواية تاريخية توثيقية، رغم إيهامات الروائي لنا بواقعيتها، ورغم ما بدله من جهد في إقناع القارئ بأنّ ما يقدمه عن الأمير هو حقائق ثابتة، دوّنها هذا الأسقف الفرنسي، وهي مدونة لا تنحاز للأطروحة الفرنسية ولا العربية، والدّافع لكتابتها لم يكن انتقاميا، وإنّما إنساني بمسحة دينية مسيحية صادقة، وبروح وطنية تتشبث بالأرض، وتحاول إنصاف رجالها الوطنيين، فقد تصرّف " واسيني " في المتن التاريخي، وجعله منحازًا لرؤيته التي قد يفصح عنها في الجزء الثاني من عمله الروائي الذي لم يكتمل:" **الرواية التاريخية ليست إعادة كتابة التاريخ، بل إعادة تدوين الماضي على نحو جمالي لا حيادي، يركن إلى نص تاريخي يحسبه غير مكتمل، فالتاريخ (دال) والماضي (مدلول)، والتاريخ هو**

رؤية المؤرخ، أمّا الماضي فهو ما استرعى انتباه المؤرخ فكتبه تاريخًا، وخلب لبّ الروائي فكتبه رواية، إنّ الرواية هي استثمار للتاريخ (بتصرف).."[٧].

يبحث الروائي عن أخطاء الأمير، التي أضعفته وعجّلت بهزيمته، فلم تكن معركته مع الجيش الفرنسي هي المعركة الفاصلة، بل كانت هناك معركة أخرى، مع أعداء الأمير في الدّاخل، وإخوانه في اللغة والدّين، أو قل المنافسين له، الطامعين في مكانته، الكاشحون الذين يضمرون العداوة والبغضاء، ولا يجاهرون بها، فالروائي على لسان الرّاوي " مونسينيور" يرى أنّ مصرع الإمارة كانت على يد " التيجانيين"، هذه الزاوية المنافسة للزاوية القادرية، الطامعة في الاستحواذ والسيطرة على شمال القارة الإفريقية وجنوبها، وقد أوقعت الأمير في مكائدها، وقامت باستفزازه حتّى أعلن عليها الحرب، لقد أحسّ الأمير بالخيانة والغدر، فقد أقحمه الغادرون في معركة خاسرة لم تكن معركته، وغرّروا به، أسئلة تاريخية يطرحها "مونسينيور" على نفسه، بل ويطرحها وسيني من خلاله : " **لديّ إحساس خاص أنّ وراء مغامرة الأمير في عين ماضي أناسًا آخرين لا يحبون الخير لا له ولا لفرنسا، أتساءل من بعث خليفة لغواط، العربي ولد سيد الحاج عيسى إلى المدية ليطلب من الأمير أن يساعده على كسر شوكة التيجانية، ويقنعه بأنّ أتباعه ينتظرونه لمبايعته؟ لماذا أجبر الأمير على ترك قلاعه، وتحضير مدنه، وذهب إلى عين ماضي لتدميرها، وهلاك عسكره بسبب الحصار والبرد، لماذا لم يساعده سلطان المغرب..؟** [٨].

لقد تسرع الأمير في خوض الحرب على التيجانية، وحصارها في قلعتها الحصينة بعين ماضي، وقد أجبر على هذا الغزو، ودفع إليه دفعًا، بعد أن يئس من التيجانية وألاعيبها، فلم يترك له الوقت مجالًا للتفكير، بعد أن ألقت الزاوية التيجانية نفسها بين أيدي الأعداء، وأصبحت حليفة لهم، وفضّلت مصالحها الشخصية على مصلحة الوطن :" يبدو أن الأمير عبد القادر وقع في خطأ عندما هاجم شيخ الطريقة التيجانية، إذ كان في الإمكان كسبه إلى صفه، هذا الاعتداء دفع بشيخ الطريقة التيجانية إلى الوقوف إلى جانب فرنسا، وإلى جانب مراكش عندما كان الطرفان حليفين في مواجهة الأمير عبد القادر، بل أنّ التيجانية وأتباعها كان لهما دور في كبير في محاصرة الأمير عبد القادر في الشرق المغربي وتصفية مقاومته هناك.."[٩].

يُبرّؤ" ديبوش" نفسه وفرنسا من هذه المكيدة، وهو يعتبر نفسه من أقرب الناس إلى الأمير، معجب به وبمبادئه، أو هكذا صوّره الروائي في عمله، والحقيقة التاريخية غير ما يرويه الرّاوي، فالواقع إنّ " Dupuche" ، لم يكن بريئا من التآمر على الأمير خلسة، وقد تقرّب منه لأجل ذلك، بل ومن الدّارسين من يشير إلى ضلوعه في مؤامرة الإطاحة بالأمير ومن هؤلاء المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله الذي يصف هذه الشخصية المسيحية بالمخادعة، وهي التي أرادت جعل الجزائر مسيحية من جديد كما يزعم أنصار القديس أوغسطين : " لقد كان أول أسقف يتولّى إدارة الأسقفية، ويرسي أركانها هو ديبوش Dupuche الذي كان اليد اليمنى لفاليه و بيجو في حربهما ضد المقاومة، والذي اشتهر بزيارته للأمير عبد القادر في معسكر، ليقابله في الظاهر بشأن الأسرى، وليتجسس عليه في الباطن، لقد عمل ديبوش منذ توليه على الربط بين دور الكنيسة ودور الاستعمار.."[١٠].

يحاصر الأمير عين ماضي، وهو في الحقيقة حاصر نفسه، ووقع في مأزق كبير، فقد التفّت حبال الغدر حول رقبته، لقد انقلب سلطان المغرب عليه، وهو يسير نحوه الآن يحاول القضاء عليه، خوفا من طموح الأمير وطمعه في سلطانه، وفرنسا تحكم قبضتها على القبائل في الصحراء، تمدها بالدعم اللازم لتتمرد على صاحب البيعة، والمسالك تضيق أمام الأمير، الذي عرف أنّه آيل للسقوط، وهي من أصعب اللحظات التي يصورها السارد في الكتاب: **" أما يزال لدينا ما نحارب به الآخر، أم فقط ما نحمي به أنفسنا، نحمي أنفسنا ممّن؟ وضعنا أسوأ من وضع طارق بن زياد..أين المفر يا ابن أمّي؟ أينه؟ دلّني عليه وسأذهب نحوه مغمض العينين."**[١١].

يظهر " وسيني" خبرة جغرافية عميقة بتضاريس المكان، ويعدّد أسماء الأودية والجبال والقبائل، والمداشر، ويحصي كلّ الدروب والمسالك، فالواضح أنّه تجهّز بما يكفي لرسم فضاء الشخصية وأحوازها، ورسم الطرق الضيقة التي قد يتسلّل منها الأمير وجيشه المهزوم، فأحكم إغلاقها جيّدًا، فلم يعد أمام الأمير المهزوم سوى تفكيك جيشه، أو ما تبقى منه، وتسليم السلاح للعدوّ، فهو الآن بين فكّي كمّاشة، وحبل الهزيمة التفّ حول رقبته، وهو الآن يائس يفكّر في الاستسلام : **" نحن بين مولاي عبد الرحمن والعودة له وطلب الصفح، وبين الفرنسيين، يمكنكم أن تختاروا ، فيما يخصني أنا فقد اخترت وانتهى أمري، أفضّل أن أسلّم نفسي**

لعدوّ حاربته وانتصرت عليه في كثير من المعارك، وقبلت هزائمه على أن أقدّم رأسي لمسلم خانني وقت الشدة، وسأطلب بأن أنقل إلى أرض إسلامية مع عائلتي ومن أراد مرافقتي فله ذلك.."[١٢] .

أغلقت كلّ الأبواب في وجه الأمير وجيشه المهزوم، وقطعت كلّ المسالك، ولم يبقَ أمامه سوى مسلك الباب الحديدي، وهو مسلك المهالك.

ج/ مسالك أبواب الحديد:

إنّ المتمعن في رواية الأمير، يكتشف أنّ العمل الروائي لواسيني ليس عملًا واحدًا كما يبدو، فقد قسّم الروائي عمله إلى قسمين اثنين؛ يختص كتاب الأمير بالأسقف الفرنسي " ديبوش"، الذي يلاحق الزمن لإتمام كتابه عن الأمير ليرسله إلى ريس فرنسا الجديد، لويس بونابرت، بعد أن نكث " لويس فيليب" عهده للأمير، وتركه أسيرًا في قصر "أمبواز"، فـ" المونسينيور" في صراع مع الوقت والمرض يلاحق الزمن ليتم تدبيج الكتاب ، والشفاعة للأمير عند " لويس نابليون" وأمّا القسم الثاني المتعلق بالمسالك والمراتب، فهو سيرة الأمير؛ فالعنوان الرئيس يخص الرواية الفرنسية عن الأمير، وما رآه " الأسقف" من سماحته، وما يرويه عن أخلاقه وذكائه ونبله، وشرف منزلته، فحرية الأمير دين على الأسقف تسديده قبل أن يلقاه الموت، ويبقى القارئ محتارًا في هذه التسمية الجديدة لهذا القسم من الرواية، فما المقصود بأبواب الحديد؟

لقد تعمد الروائي توظيف المعجم الصوفي، فشخصية الأمير العسكرية والسياسية، تحمل بداخلها طاقات روحية كبيرة، فالأمير صاحب الطريقة الصوفية التي أسّسها " عبد القادر الجيلاني"، والتي تحمل اسم الأمير، حتّى يظن النّاس أنّها تنسب إليه، أو بها عرفت وبغيرها لم تكن لتعرف في شمال إفريقيا وجنوبها، فالمسالك، والأحوال، والمقامات، المنزلة، اليقين.. مصطلحات اصطفاها المؤلّف من المعجم الصوفي، ليصف من خلالها حالات الأمير مترددًا، ويائسًا وخائفا، ومتوجسًا، بين الرجاء والخوف.

أبواب الحديد تحمل في دلالتها معاني الحصار المطبق والمحكم والقاسي، أبواب الحديد هي سجن الأمير وأسره، والمأزق الذي انقاد إليه، ولا سبيل للخلاص منه سوى باتباع اليقين، فالمسالك الصعبة والدروب الوعرة، والسراديب المظلمة وحدها من يخلّص الأمير من قهر السجن وأبوابه العالية، التي تفتح بالدعاء، ويظهر الأمير خلال كلّ هذا نادمًا مقهورًا ومهانا، تربص به

الأعداء واستطاعوا بمساعدة العملاء الإطاحة به، وهو الآن أسير، تقتله الندامة، وتستبد به المخاوف والهواجس، يسأل نفسه عن جدوى الحروب التي خاضها، والمعارك التي زجّ بها نفسه وأهله وأصدقاءه!

هكذا يصوّر " واسيني" الاستسلام التي عاشها الأمير عبد القادر، يحاول التعبير عن تلك المشاعر المؤلمة، والأحاسيس الموجعة، ويحاول الروائي تمرير خطابه الإديولوجي الخاص عن المقاومة والثورات، التي يراها نوعًا من الانتحار وضربا من ضروب التهوّر، فما الجدوى من هذه المقاومة التي لا تقود إلى شيء، سوى الدمار والموت، وفقدان الأحبة والأصدقاء :" **أحيا يخيفنا السؤال ما جدوى الدم الذي ضاع والأحباب الذين لو يعودون اليوم سيحاسبوننا بلا رحمة الكمشة الأخيرة التي بسؤال بسيط، ماذا فعلتم بنا؟ الزمالة ضاقت حتّى صارت دائرة بأقلّ من عشرة آلاف نسمة، ثم ضاقت ليتبعثر ما تبقى منها بين جبال أمسريدا وجبال ايزناسن، ووهاد الطريفة وزندل وبوجنان، وهاهي الكمشة الأخيرة التي لايريد أحد استقبالها تهيم في دنيا الله على وجهها..لقد أراد الله والأقدار أن تتوقف المواصلة معناها الانتحار.."**[١٣] .

يبحث الأمير عن حريته، وعن منفاه بعد أن ضاقت به الزمالة، وتنكّر له أهلها، وهو الآن بين يدي هؤلاء الجبناء الذين يمعنون في تأجيل اتخاذ القرار في النهائي في مصيره، يتقاذفونها هنا وهناك، يمعنون في إهانته وإذلاله، فقد تعرّض الأمير في إقامته للمساومة والابتزاز، وقد عرض عليه الفرنسيون عروضا مغرية، ليقيم في فرنسا فانتفض ورفض أن يبيع حريته ومجده للعدو :" **والله لو جمعت كلّ كنوز الدّنيا في برنسي، وطاب منّي أن أضعها مقابل حريتي لاخترت حريتي، لا أطلب شفقة ولا منّة، طلبت أمانًا فرنسيا فأعطي لي من طرف جنرال فرنسي بدون قيدٍ أو شرط.."**[١٤].

تفتح أبوب الحديد المغلقة، ويرى الأمير نور الحياة من جديد، يلتقي أصدقاءه وأتباعه، ويهمّ بالسفر إلى منفاه هناك، حيث اختار بلاد الشام وطنا له، ولأهله، يخرج فرحا سعيدًا باسترجاع حريته، والتعرّف على أرض جديدة، يقيم فيها، مكة المكرمة، الباب العالي تركيا، وسورية حيث مثواه الأخير، وتنتهي الرواية بتحرّر الأمير، وموت " مونسينيور' الذي أسكت المرض وجعه وأنفاسه، وكانت نهايته حزينة مؤثرة، ينقل " واسني" لحظات التأبين للأسقف

المسيحي وقدّاسه الكنسي، وقد وقف سكان " بوردو" مسقط رأسه، ورفاقه وأهله يزفونه لوطنه الذي أحبّه وطلب أن يدفن على ثراه الطّاهر، هذا البلد الإفريقي هو الجزائر.

وخلاصة القول: من خلال دراستنا لرواية " كتاب الأمير" لواسني الأعرج " وتحليل خطابها التاريخي، خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- تجمع رواية كتاب الأمير بين سيرتين هما سيرة الأمير عبد القادر الجزائري، وسيرة الأسقف المسيحي " ديبوش"، والرواية تحمل اسم كتاب " المونسينيور" وليس اسم الأمير.
- لا تتقيد الرواية بالحقائق التاريخية، فكثيرًا ما تجاوز المؤلف حدود التاريخ، ليعانق آفاق التخييل السردي التي لا حدود لها.
- لم تكن رواية "كتاب الأمير" محايدة " بل خضعت لتوجهات الكاتب ومرجعيته الفكرية والتاريخية وخطّه الأدبي والفني والإيديولوجي.
- تكرّس الرواية فكرة التسامح الديني والسلام بين الشعوب، ففرنسا ليست عدوّا أبديا، فلا توجد صداقات دائمة، أو عداوات دائمة، فقط هناك صداقات دائمة.

المراجع:

١) عبد السلام أقلمون : الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط١،بيروت لبنان ٢٠١٠ .

٢) سليمان الطعان: عثرات السرد في روايات نجيب محفوظ التاريخية مجلة الباحث،جامعة ثليجي مختار المجلد ١٢ العدد ٣،الأغواط الجزائر ٢٠٢٠ .

٣) محمد القاضي: الرواية والتاريخ دراسات في تخييل المرجعي ،دار المعرفة للنشر ،ط١، تونس ٢٠٠٨ .

٤) عاصم الدسوقي: فن الرواية وعلم التاريخ،مجلة الرواية قضايا وآفاق،الهيئة المصرية العامة للكتاب،العدد ٢، القاهرة ٢٠٠٩.
٥) واسيني الأعرج؛ كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، ط٢، بيروت لبنان ٢٠٠٨.
٦) نضال شمالي؛ الرواية التاريخية، عالم الكتب الحديثة، ط١ أربد الأردن ٢٠٠٠ .
٧) نور الدين بلعربيي؛ الصراع بين الأمير عبد القادر وزاوية عين ماضي وموقف المغرب وفرنسا من ذلك، مجلة قرطاس، العدد ١١، جامعة تلمسان، الجزائر ٢٠١٩.
٨) أبو القاسم سعد الله؛ الحركة الوطنية الجزائرية، – ١٨٣٠–١٩٠٠ ج١، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت لبنان ١٩٩٢.

[١] – عبد السلام أقلمون : الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط١،بيروت لبنان ٢٠١٠ ص ٢٩. ٣٠.

[٢] – سليمان الطعان:عثرات السرد في روايات نجيب محفوظ التاريخية مجلة الباحث،جامعة ثليجي مختار المجلد ١٢ العدد ٣، الأغواط الجزائر ٢٠٢٠ ص ١٤.

[٣] - محمد القاضي: الرواية والتاريخ دراسات في تخييل المرجعي ،دار المعرفة للنشر ،ط١، تونس ٢٠٠٨ ص ١٨.

[٤] – عاصم الدسوقي: فن الرواية وعلم التاريخ،مجلة الرواية قضايا وآفاق،الهيئة المصرية العامة للكتاب،العدد ٢، القاهرة ٢٠٠٩.ص ٢٨٢.

[٥] –واسيني الأعرج؛ كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، ط٢، بيروت لبنان ٢٠٠٨، ص ٥١.

[٦] – المصدر نفسه ص ٢٥٣.

[٧] –نضال شمالي؛ الرواية التاريخية، عالم الكتب الحديثة، ط١ أربد الأردن ٢٠٠٠ ص ١٠٨.

[٨] –كتاب الأمير ص ٢٥٢.

٥- نور الدين بلعربي؛ الصراع بين الأمير عبد القادر وزاوية عين ماضي وموقف المغرب وفرنسا من ذلك، مجلة قرطاس، العدد ١١، جامعة تلمسان، الجزائر ٢٠١٩ ص ٧٤.

- أبو القاسم سعد الله؛ الحركة الوطنية الجزائرية، - ١٨٣٠-١٩٠٠ ج١، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت لبنان ١٩٩٢ ص٢٣٤. [١٠]

-كتاب الأمير ص ٤٠٦. [١١]

- نفسه ص ص ٤٦٢. ٤٦٣. [١٢]

-المصدر نفسه ص ص ٥١٣. ٥١٤. [١٣]

-نفسه ص ٥٣٧. [١٤]